مناظر النصح والإرشاد علي تصاوير المخطوطات الإسلامية

محمد يونس[ا]

ملخص:

تهدف فكرة هذا البحث إلى توضيح الآداب والأعراف التي كان الفنان يحرص على مراعاتها حال قيامه برسم تصويرة لشرح فكرة أو موضوع معين في مخطوطة من المخطوطات الإسلامية. وينعكس هذا الفكر على التصويرة بشكل مباشر من حيث مراعاة الآداب والقواعد الإسلامية على مجريات الأحداث في التصويرة، مما يجعل من هذه التصاوير سجلاً أو قُل مرآة تعكس مظاهر الحياة اليومية في ضوء ثقافة العصر الذي رُسمت فيه. وسوف أقوم في هذا البحث بتوضيح ما كان يرنو إليه الفنان المسلم من رسم أحد مناظر التصويرة مقارناً بين ما تظهره التصويرة وما يقابلها من تعاليم الدين الحنيف.

مقدمة :

يُعد الفن الإسلامي من أهم الفنون التي عنيت بتصوير الحالة الاجتماعية للدول الإسلامية ليس فقط بالنسبة للحكام ومن يدور في فلكهم من الوزراء وكبار رجال الدولة كما في الحضارات الأخرى السابقة على الإسلام، ولكنه امتد إلى التعبير عن عامة الناس والطبقات الفقيرة، فأصبح الفن الإسلامي بمثابة المرآة التي تعكس مظاهر الحياة اليومية في كافة أرجاء العالم الإسلامي. ولا شك في أن النصيحة من القواعد الراسخة في الدين الإسلامي وذلك لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " *الدين النصيحة، قُلنا لمن؟، قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم*" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]. ونظراً لأن الفنون الإسلامية ارتبطت بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً، فلم يغفل الفنان المسلم هذا الجانب الهام من جوانب الحياة الدينية والاجتماعية في العصر الإسلامي فقد راعى الفنان المسلم هذا المبدأ في مختلف الفنون التي تصل إلى عامة الشعب وخاصتهم. ولعل فن التصوير من الفروع ذات الأهمية الكبيرة في الفنون الإسلامية؛ وذلك لما يصوره من مظاهر الحياة اليومية، حيث يقوم المصور أو الرسام بتجسيد ما يراه في يومه كلما دعت الحاجة لتوضيح موقف معين في مخطوطة من المخطوطات الإسلامية؛ فقام بتصوير مناظر تدل على الوعظ والإرشاد وبذل النصيحة تدعيماً لنصوص المخطوطات الإسلامية. والحديث عن الوعظ قديم قدم الأمة الإسلامية، وحين دخل فن التصوير إلى الحياة الإسلامية كان لابد له أن يعالج تلك الحياة من جميع نواحيها دون أن ينفرد بناحية دون أخرى، فقد وردت مظاهر الوعظ على صور عدة؛ فمنها ما جاء على صورة الأمثال، ومنها ما جاء على صورة الحكمة، ومنها ما أُفرغ في قصة رمزية على ألسنة الحيوان والطير، ومنها ما اقتبس من الواقع الإنساني وكان تعبيراً عن أمرٍ واقعٍ حقاً، ومنها ما كان للخيال نصيب كبير فيه.

[ا] **كلية الآثار – جامعة الفيوم (مصر)**

وسوف أقوم في هذا البحث بتوضيح مظاهر النصح والإرشاد وآدابه التي حرص الفنان المسلم على إظهارها في المواقف المختلفة التي تستلزم إبداء النصيحة لشخص ما أو إرشاده إلى سلوك قويم. ولتوضيح هذه الفكرة سوف أقوم بتقسيم مواقف النصح والإرشاد التي ظهرت في تصاوير المخطوطات الإسلامية إلى ثلاثة أقسام لكل منها مظاهره وصفاته كما يلي :

1. مناظر النصح والإرشاد لرجال الدولة.
2. مناظر النصح والإرشاد الديني.
3. مناظر النصح والإرشاد الاجتماعي.

القسم الأول: مناظر النصح والإرشاد لرجال الدولة:

يختص هذا القسم بدراسة مظاهر النصح والإرشاد التي تظهر في المناظر التي تصور الحكماء والفقهاء وهم يقومون بإسداء النصح والإرشاد إلى الملوك والسلاطين والحكام ومن يدور في فلكهم. ويظهر في هذه المناظر مدى احترام وتوقير الحكام للناصحين والحكماء من أصحاب الخبرة والكفاءة. ونجد من التصاوير التي تحمل مناظر توحي بالنصح والإرشاد الرسمي، تصويرة من مخطوط كتاب "مقامات الحريري"[2] الذي يرجع تاريخه إلى ما بين عامي (621-632هـ/1225-1235م)، ومحفوظ بمعهد الدراسات الشرقية بأكاديمية العلوم بسان بطرسبرج **(لوحة رقم 1)**. وتمثل هذه التصويرة أبو زيد السروجي يعظ حاكم مرو، الذي يسأله عن حسبه ونسبه، لما وجد فيه من رجاحة عقله وسديد رأيه. ويظهر في التصويرة حاكم مرو جالساً على كرسي مرتفع، في مكان يدل على الثراء والبهاء ربما كان قصر الولاية؛ حيث الزخارف الإسلامية ورسوم العقود والقباب، ويشير الحاكم بيده إلى أبي زيد السروجي متسائلاً وطالباً التوضيح، ويظهر أبو زيد في حضرته يشير بإصبعه ويرفع رأسه بالإجابة على الوالي من دون خوف في عزة واعتزاز، وخلفه شخص قد احتضن عموداً من أعمدة البهو، وقد تشابهت ملابسه مع ملابس شخص آخر يجلس خلف كرسي العرش، ولعل هذين الشخصين من حاشية الوالي. وثمة ثلاثة أشخاص آخرون يجلسون في مقدمة التصويرة؛ بدا على وجه واحد منهم الدهشة لجرأة أبي زيد في التعامل مع الحاكم، وآخر يتحدث مع الشخص الثالث ربما حول ما يقوله أبو زيد للحاكم. ويبدو في هذه التصويرة من مظاهر وآداب النصح والإرشاد للحكام؛ جرأة الناصح وعدم تردده في إسداء النصيحة للحاكم. وهو مما حث عليه الإسلام بل جعله أفضل الجهاد ومصداق ذلك قل النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل: "*أي الجهاد أفضل؟ قال كلمة حق عند سلطان جائر*" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم،[3] كما تدل حركات وتعبيرات وجه أبي زيد على فصاحته وتمكنه من كلامه وقد اقترب من الحاكم يعظه، وقد اقترب الحاكم أيضاً من أبي زيد بعدما رأى من كلامه الإخلاص وحسن القول، فلا نجد غطرسة العرش تطغى على تعبيرات الحاكم، ويدل على ذلك متابعته وإصغاءه لنصح أبو زيد، وهذا أيضاً من آداب المنصوح.

وهناك نوع آخر من الوعظ والنصح الرسمي وهو نصح الحاكم للرعية ووعده إياهم بالخير إذا ما عملوا بكلامه وانصاعوا لأوامره، وهو من الأدوار الأساسية للحكام في العصر الإسلامي –والذي افتقدناه

في عصرنا الحاضر– ألا وهو دور الحاكم الإمام الذي يخطب في الناس واعظاً ومذكراً بتقوى الله وطاعة أولي الأمر منهم. ومن ذلك تصويرة من مخطوط كتاب "الشاهنشاهنامه" الذي خُط في شيراز سنة799هـ/1397م، محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن (لوحة رقم 2) وهي تمثل جنكيزخان[4] –حاكم المغول– يعظ الناس من على منبر في مدينة بخارى، ويأمرهم بطاعته مخبراً إياهم بأن مُلك بني العباس وخلفائهم قد آل إليه فعليهم طاعته، ومهدداً لهم بأن الله قد أرسله إليهم ليعاقبهم على شرورهم؛ فالأجدر بهم العودة إلى الله سبحانه وتعالى والعمل على طاعته جل جلاله وطاعة أولي الأمر ممثلاً في شخصه. ومن المعروف تاريخياً أن جنكيز خان كان بوذياً ولكنه –رغم قسوته وجبروته– لم يُكره المسلمين في البلاد التي فتحها على ترك الإسلام، بل إنه قد استخدم تعاليم الإسلام للتقرب إلى المسلمين وجذب وُدِهم إليه. كما استخدم أخوه هولاكو الوسيلة نفسها للإيحاء للمسلمين بأن فتحه بلادهم إنما هو أمر واقع وقدر محتوم فسجل على نقوده الآية القرآنية [*قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء*] (آل عمران: 26)[5].

ويظهر في هذه التصويرة جنكيزخان وقد اعتلى درجات منبر إسلامي الطابع، جالساً على الدرجة الأخيرة فيه مشيراً إلى المستمعين بيده اليمنى وممسكاً السيف بيده اليسرى، وقد جلس لسماع خطابه عدد من الناس تبدو عليهم السحنة المغولية وذلك من تقاليد هذه المدرسة في فن التصوير المغولي. وقد رسم الفنان هذا المنبر في مكان كحديقة ذات ثمار وأشجار، وهذا من غير المألوف أن نجد منبراً في حديقة، وربما قصد الفنان المسلم من هذا التصوير مراعاة التعاليم الإسلامية في عدم السماح للكفار بدخول المساجد، كما أنه أراد أن يصور للناس أن الحاكم يقوم بدوره من الوعظ والنصح الديني حتى لا يجدوا من حاكمهم النقص في أداء واجب من واجباته وهو إمامة الرعية ووعظهم.

القسم الثاني: مناظر النصح والإرشاد الديني:

يختص هذا القسم بدراسة مظاهر النصح والإرشاد التي تظهر في التصاوير الخاصة بمناظر الوعظ الديني وخطب المساجد. ويظهر في هذه المناظر مدى إصغاء المستمعين واستعدادهم الجدي لتقبل النصيحة والعظة. ويظهر في هذه التصويرة أيضاً مدى حرص الواعظ وانفعاله مع المستمعين. **(لوحة رقم 3)**، ومن ذلك تصويرة تمثل أبا زيد السروجي وهو يعظ في مسجد سمرقند، من مخطوطة كتاب مقامات الحريري (المقامة الثامنة والعشرون)، محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن (تحت رقم إضافة 22 و 114)[6]. وفيها نلاحظ أبا زيد السروجي قد اعتلى درجات المنبر وأخذ يعظ الناس، وازداد انفعاله كما يظهر من حركات يديه، دليلاً على إخلاصه في النصح. كما نجد أيضاً المستمعين وقد بدا عليهم التأثر بالنصيحة، وقد أعاروا سمعهم ونظرهم للواعظ، وقد أثر فيهم لدرجة كبيرة مما جعل أحدهم وقد بدأت الدموع تسقط من عينيه، فأخرج منديلاً لمسحها من شدة ما وقع في نفسه. وقد رُسمت هذه التصويرة بحسب تقاليد المدرسة المملوكية في التصوير الإسلامي؛ كما يظهر في التصويرة من ملامح تميل إلى السحنة الصينية التي انتشر وجودها مع قدوم المغول إلى الأراضي الإسلامية، والسطحية في رسوم العمائر التي تخلو من البعد الثالث أو التجسيد.وقد حرص الفنان المسلم على إظهار تقدير قيمة الشخص

الواعظ؛ حيث ميزه برسم هالة رُسمت باللون الذهبي، ولعل المصور قد أظهر أيضاً تقديره للمتلقين للنصيحة والوعظ برسم الهالات حول رؤوسهم عملاً بقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): "*الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما*" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم[7].

وثمة تصويرة أخرى لنفس المنظر السابق لنسخة أخرى من المخطوط (المقامة الثامنة والعشرون ورقة 93)[8] (**لوحة رقم 4**)، رُسمت بحسب تقاليد المدرسة العربية في المشرق، فقد رُسم أبو زيد السروجي وهو في زي إمام وخطيب، وهو في هيئة رجال الدين إذ تبدو عليه مسحة الهدوء والوقار، وذلك لأن المصور أراد أن يوحي إلى المشاهدين مدى نجاح قدرة أبي زيد في أقناع المستمعين بأنه أهل للوعظ، إذ تبدو عليه علامات الحكمة والعلم؛ فلو جاءهم بزيه الهزلي المعتاد لما سمعوا له ولا لحديثه. وهو من المؤثرات في إقبال الناس على أرباب النصح والوعظ، حيث يجب على الناصح أن يكون في هيئة وزيّ يعطيانه وقار العلماء وذوي الخبرة، حتى يُقبل الناس عليه، فيتمكن من نصحهم.

الوعظ بالترغيب والترهيب:

لعل التخويف بالنار وإلقاء الخشية والترغيب بالجنة وحفز النفوس إلى الطاعة، من أهم الجوانب التي تتسع لخيال المصور الإسلامي ويبدع فيها أيما إبداع. وكم من مَشاهد في الجنة ما يُغري ويجذب النفوس طمعاً في التنعم به. ولقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بأوصاف الجنة وما بها من أنهار من لبن وعسل مصفى، ومنها قوله تعالى [*مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماءٍ غير ءاسن وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ...*] (محمد، 15)، ومن نخيل وأعناب ومن قصور شاهقات وحور عين إلى غير ذلك مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وتطرب لسماعها الآذان مصداقاً لقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم): "*قال الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر*" مصداق ذلك في كتاب الله [فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون].[9] ثم كم حفلت تلك الكتب أيضًا بأحاديث عن النار تهول الأنفس وتفزع القلوب وتخلع الخواطر وتزلزل الجَنان من ذكر لزبانية غِلاظ شِداد وذكر للمعذَّبين الآثمين وما يلقون من هول، طعامهم من غسلين وشرابهم من حميم آن، كلما نضجت جلودهم بُدلوا غيرها ليَذوقوا العذاب مجددًا مع تجدد جلوهم، يستغيثون فلا مُغيث ويستصرخون فلا مجيب. تلك الألوان التي جمعتها الجنة وجمعتها النار، وتلك الصور المطمئنة هنا والمفزعة هناك، وهؤلاء الناعمون في الجنة يمرحون حيث يشاءون، ثم هؤلاء المعَذَّبُون في النار يضجون ويستغيثون. هذا المجال الخصب المليء بتلك الصور الواعظة رُشداً ونهياً كانت فيها فُسحة للمصور ليبدع مستوحياً من خيال المسلم المؤمن بهذا كُله فيضفي على النعيم جلالاً بعد جلال وعلى العذاب نقمة بعد نقمة ليُبَلِغ صورته من النفس ما لم تبلغه عبارات الكتاب نفسه[10].

ومن أمثلة تلك التصاوير التي تستخدم الترهيب كأداة للزجر والنهي، تصويرة من مخطوط "كتاب معراج نامه"[11] المخطوط في هراة سنة 867هـ/1436م، محفوظ بالمكتبة القومية بباريس،(**لوحة رقم 5)** وهي تمثل تصويرة من التصاوير التي تخيلها الرسام لعذاب النساء اللاتي يتطاولن بألسنتهن على أزواجهن ويخرجن بغير إذنهم ويشتغلن بالعمل الفاسد[12]. وقوام هذه التصويرة رسم لمجموعة من النساء

عاريات الأجساد، وقد التقمتهن النيران في جهنم، وهن معلقات من ألسنتهن بكلاليب سوداء. وقد بدأت النيران في أكل أجسادهن من أسفل وانصهرت ويسقط منها سائل متفحم وتواصل النيران الارتفاع حتى اقتربت من شعورهن. ويتقدم التصوير رسم لشخص قوي البنية جاف الملامح ذو نظرات غليظة ليس في قلبه أي نوع من الرحمة –ربما يشير إلى خازن النار– ويمسك هذا الشخص في يده عصاً حمراء قد تشير إلى أنها من حديد محمي، ويخرج من فمه لسان من نار، ولعل الرسام حاول قدر الإمكان إبراز ما تخيله من الأحاديث المتواترة عن أصحاب النار من خلال قصة معراج النبي – صلى الله عليه وسلم– ليصل بمشاعر المشاهدين لهذه التصويرة إلى قمة الفزع والخوف فيرتدع من يفكر في الإقدام على مثل ما يُعذب بسببه هؤلاء النسوة، ويتوب إلى الله ويستغفره من أدى هذا العمل، خشية من الوقوع في العذاب الذي يرى نموذجاً له من خيال المصور.

وثمة تصويرة أخرى تعكس الجانب الآخر من الحياة الآخرة وهو الجنة وأهلها، تبشيراً من المصور لفاعلي الخير، وترغيباً للمترددين والمقبلين على الثواب. والتصويرة أيضاً من مخطوط "كتاب معراج نامه" **(لوحة رقم 6)** وهي تمثل منظراً خيالياً لما ينعم به أهل الجنة من أعناب وفواكه وأنهاراً من خمرٍ مصفى، لا يشتاقون لشيء حتى يجدوه بين أيديهم، فنجد فيها مجموعة من الحور العين وقد ظهرن في أحسن حال وأزهى صورة وأبهى منظر، في ثياب توحي بالبهجة والفرحة والسرور، وهناك أناس آخرون –ربما من أهل الجنة– وقد بدت عليهم الدهشة والسعادة لما هم فيه من النعيم المقيم. ولعل ما أقدم عليه المصور من رسم خيالي لأشجار الثمار المتدنية من الأفرع القريبة المنال من أيدي أهل الجنة، وذلك من وحي "*ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر*". وهذا النوع من التبشير أيضاً هو وسيلة من وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنوع من التبشير بالنتيجة المنتظرة من ذلك الفعل الحسن والخير المنتظر. وهكذا جاءت تلك الصور تمثل أقوى تمثيل الترغيب والترهيب بأسمى ما يحملان من معانٍ للوعظ والنصح، مما لا يُعبَّر عنها بهذا التعبير لسان متكلم أو قلم منشئ.

القسم الثالث: مناظر الوعظ والإرشاد الاجتماعي:

ويمثل هذا القسم تلك الرسوم والتصاوير التي ظهر فيها مناظر توحي بالوعظ والنصح فيما بين عامة الشعب، وهذا الدور من الأدوار التي يتجلى فيها أهمية فن التصوير عن الفروع الأخرى للفنون، لما يصوره من مناظر في الحياة اليومية قد يكون من بينها مناظر لأناس من عامة الناس وفقراءهم مما لا يجد الفنان مجالاً لإبرازه في الفنون الأخرى مثل الرسوم على التحف الخزفية والمعدنية وغيرها من الفنون التي تصنع من أجل فئات ذات طبقات متميزة في البلاد.

ومن أمثلة المناظر والتصاوير التي يظهر فيها الوعظ والإرشاد الاجتماعي، تصويرة من "كتاب الحيوان " للجاحظ محفوظ بمكتبة الأمبروزيانا بميلانو ***(لوحة رقم 7)*** وهي تمثل امرأة تعيسة تشكو زوجها لصديقتيها في حزنٍ وأسى، فتحكي مأساتها مع زوج جاهل بإسعاد المرأة، إذ يلقي على صدرها بصدره الثقيل في جلافة وغباء، بينما تنصت إحدى الصديقات إلى شكواها في دهشة وتأثر يتجليان في وضعها

سبابتها على فمها علامة الدهشة، بينما تومئ الأخرى إلى المتحدثة بكفيها تهدئ من روعها للتخفيف عنها ونصحها بالتحمل والصبر وربما توصيها ببعض الوصايا التي تساعدها على العيش مع زوجها.

وقد راعى الفنان عند رسم هذه التصويرة إظهار مبادئ راسخة يجب على الشاكي والناصح توخيها عند الشكوى وعند طلب النصح من الآخرين، فقد جاءت التصويرة مُعبرةً عن قرب النساء الثلاث من بعضهن وذلك للحساسية الموضوع ، وقد ظهر أيضاً قرب الشاكية من صديقتها الأولى وكأنها تهمس في أذنيها، ولربما كان ذلك من حرص الفنان على توضيح أن مثل هذه الأمور شديدة الحساسية لا يجب أن تذكر أمام الأصحاب، ولكن في هذه الحال وجدت المرأة نفسها مضطرة للبوح بهذه الشكوى في خجل فكانت صديقتيها المقربتين هما من استطاعت البوح أمامهما بهذه الأسرار، وهذا من الأمور التي حدث مثلها على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الطويل المشهور بحديث أم زرع[13]. ويتجلى ذلك في توضيح علاقة الصداقة بينهن في الرمزية ببعض العناصر التي توحي بالصداقة والضيافة مثل الكأس والقنينة وجلوس المرأتين على وسادة واحدة. كما أراد الفنان أيضاً إظهار عنصر هام في آداب النصيحة الإسلامية وهو عنصر السرية في إسداء النصيحة، وهو من الآداب الراسخة في النصيحة، ويدلل على ذلك قول الإمام الشافعي:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فإنّ النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي فلا تغضب إذا لم تُعط طاعة

فقد رأى الرسام أن يُصور المشهد في جوٍ من السكينة والهدوء مما يوحي بانعزال النساء الثلاث عن جميع الناس حيث لم يظهر في التصويرة سوى نبتة واحدة ربما تكون من زينة البيت أو أن تكون في حديقة المنزل ولم يُظهر رسم المنزل حتى يوحي ببعد المكان الذي يجلسن فيه عن أسماع من في البيت. وتتضح في هذه التصويرة مميزات المدرسة العربية في التصوير؛ حيث العيون اللوزية وبساطة الأدوات المستخدمة، وزخرفة الملابس بالألوان والزخارف العربية المميزة. ويتميز هذا النوع من التصوير بتمثيل مجالس العامة –أي من ليسوا من ذوي السلطان– ويظهر ذلك من بساطة الفُرش التي يجلسون عليها التي لا تكاد تحمل إلا القليل النادر من الزخارف، وتُعد مجالس العامة من الأمور التي حرص الفنان على تصويرها، لما لها من أثر في توضيح السلوكيات التلقائية من أصحاب الطبقات الفقيرة والمتوسطة، وقد استمر تصوير هذه الطبقة على مر العصور والأزمان ببساطتها وعفوية تصرفاتها.[14]

ومن أمثلة النصح والإرشاد الاجتماعي، تصويرة من مقامات الحريري، تمثل القاضي يعظ أبا زيد السروجي وزوجته بعد أن شكى كل منهما سوء حاله مع الآخر **(لوحة رقم 8)**،[15] إذ يظهر القاضي بهيئة يبدو عليها الوقار والسكينة– وهي من صفات أهل النصح والوعظ– جالساً فوق كرسي منخفض وأَمَامه أبا زيد وزوجته في زيٍّ محتشم حيث لا يظهر من المرأة سوى النصف العلوي من وجهها، وتضع على فمها ما تحجب به صوتها حتى لا يبدو أمام القاضي أنها من النساء اللائي يرفعن أصواتهن على أزواجهن، وكل منهما يحاول إقناع القاضي بحجته، إلا أن القاضي رأي أنه من الأحرى أن يُصلح بينهما،

فنجد على وجه القاضي بشاشة توحي بسماحة وجهه ولين كلامه –وهي أيضاً من الصفات التي يجب أن تتوافر على الناصح حال إسداء النصح للآخرين– وذلك عملاً بقوله تعالى: [*فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك*] (آل عمران: 159).

خاتمة

وأخيراً يمكن القول بأن الفنان المسلم قد مثل الواقع الذي يراه في يومه على تصاوير المخطوطات الإسلامية، وقد راعى الفنان تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في تمثيل المناظر التي يرسمها لتوضيح موقف معين قد يحتاج إلى توضيح في كتابات المؤلفين. ومن هذا المنطلق نجد الفنان المسلم قد صور المناظر التي توحي بالوعظ والإرشاد متتبعاً في ذلك آداب النصيحة سواء بالنسبة للناصح أو المنصوح، وقد أوضحت الدراسة أن لكل مقام في النصح والإرشاد مظاهره، حيث تختلف مظاهر النصح والإرشاد التي رسمها الفنان لحكيم يعظ حاكماً ، عن تلك التي لشيخ يعظ عامة الناس ، وأخرى لأصدقاء يتناصحون في أمور خاصة شديدة الحساسية. وقد ظهر من أخلاق وآداب النصيحة مدى حرص الفنان على إظهار السرية وعدم النصح على الملأ، كما اتضح من خلال الدراسة حرص الناصح والمنصوح على احترام كل منهما للآخر، كذلك في استخدام الترغيب والترهيب في الوعظ الديني كوسيلة من الوسائل الفاعلة في إقبال الناس على الخير ابتغاء الثواب واجتناب الرذائل خوفاً من العقاب، بالإضافة إلى العديد من الآداب والسلوكيات التي ظهرت في تصاوير المخطوطات الإسلامية والتي تناولتها في حينها.

ABSTRACT:

DEPICTIONS OF THE ADVICE AND GUIDANCE THEMES AS ILLUSTRATED WITHIN THE ISLAMIC MANUSCRIPTS

Mohamed YONIS

Islamic painting is one of the most important issues of Islamic art; it gives us a different and much fuller picture of the daily life as it was lived in time and space, from that presented by the other sources. Thus, advice and guidance are important parts of the ethics in Islam, that the Prophet Muhammad –*Sala Allah-u alih wa salam*– advised all Muslims to advise each other. According to these doctrines, the Muslim artists recorded their imaginations in the paintings which used as a method of clarifying for the Islamic manuscripts. This paper is focusing on the manifestations of advice and guidance which appeared within the imageries of Islamic manuscripts, and how they are matching the Islamic style of the Islamic ethics.

اللوحات

لوحة رقم (1) تصويرة تمثل أبو زيد السروجي يعظ حاكم مرو، من: مخطوط كتاب مقامات الحريري 622-632هـ/1225- 1235م، محفوظ بمعهد الدراسات الشرقية بأكاديمية العلوم- سان بطرسبرج

لوحة رقم (2) تصويرة تمثل جنكيز خان يعظ الرعية في بخارى، من مخطوط كتاب شاهنشاهنامه، شيراز 799هـ/1397م، محفوظ بالمتحف البريطاني بلندن.

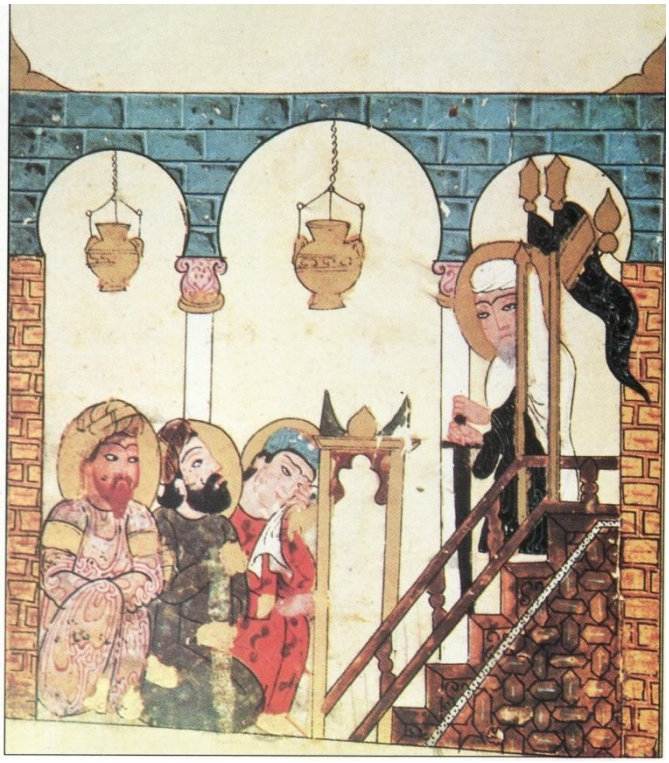

لوحة رقم (3) تصويرة تمثل أبو زيد السروجي يعظ في مسجد سمرقند، مخطوط كتاب مقامات الحريري يرجع تاريخه إلى حوالي سنة 699هـ/ 1300م ، محفوظ بالمتحف البريطاني بلندن.

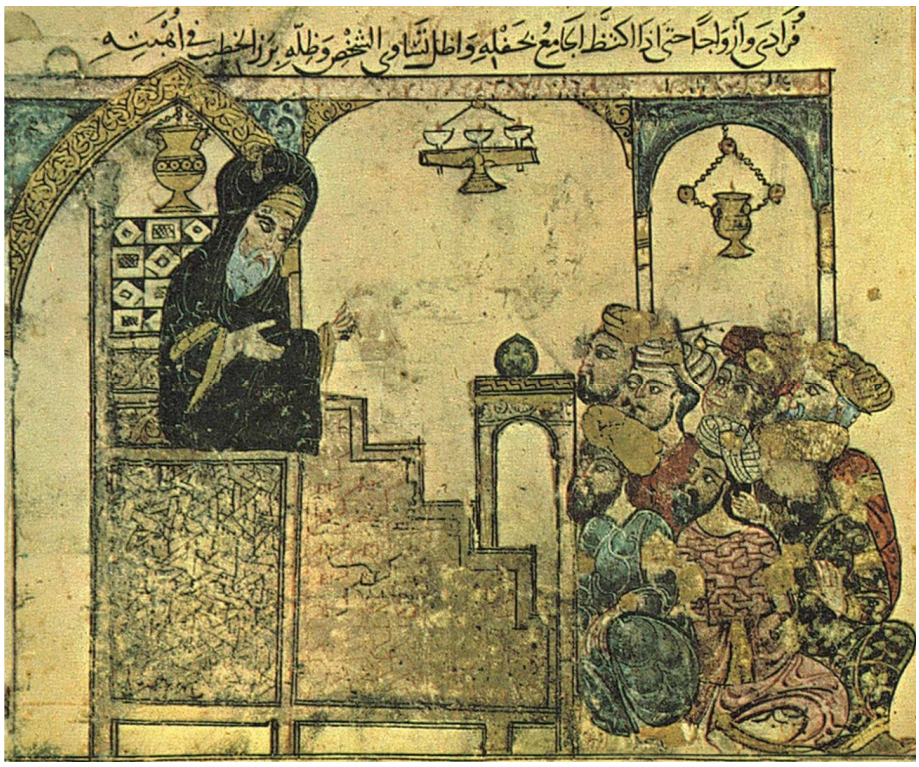

لوحة رقم (4) تصويرة تمثل أبو زيد السروجي يعظ في مسجد سمرقند،
مخطوط كتاب مقامات الحريري، المقامة الثامنة والعشرون ورقة 93، عن :
Buchthal, Hugo. "Early Islamic Miniatures from Baghdad"Journal of the Walters Art Gallery 5 (1942), Fig. 13.

لوحة رقم (5) تصويرة تمثل عذاب النساء اللائي يتطاولن على رجالهن بألسنتهن، ترهيباً من اقتراف هذا الاثم، من مخطوط كتاب معراج نامه، هراة 839هـ/ 1436م، محفوظ بالمكتبة القومية بباريس.

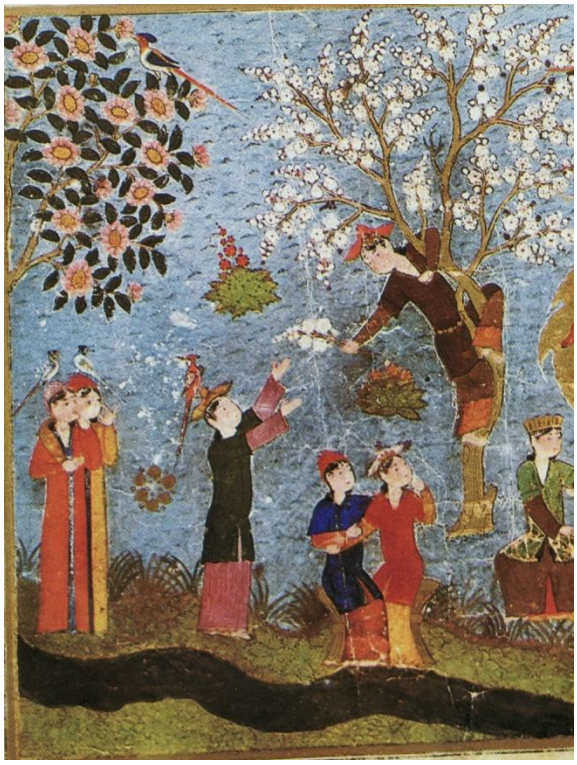

لوحة رقم (6) تصويرة تمثل تخيل الفنان لأحد مناظر الجنة بثمارها والحور العين فيها، ترغيباً في طلبها، من مخطوط كتاب معراج نامه، هراة 839هـ/ 1436م، محفوظ بالمكتبة القومية بباريس.

لوحة رقم (7) تصويرة تمثل زوجة تعيسة تشكو زوجها وتطلب النصح من صديقتيها،
مخطوط كتاب الحيوان للجاحظ، محفوظ بمكتبة الأمبروزيانا بميلانو

لوحة رقم (8) قاضي الرملة ينصح أبا زيد وزوجته، وقد هَمَّ كل منهما بعرض شكواه،
مخطوط مقامات الحريري، محفوظ بالمتحف البريطاني بلندن

الحواشي:

[1] أخرجه مسلم في صحيحه برقم 205

2 المقامات فن من فنون الكتابة العربية ابتكره بديع الزمان الهمذاني، وهو نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية، ويدور الحوار فيها بين شخصين، ويلتزم مؤلفها بالصنعة الأدبية التي تعتمد على السجع والبديع. تعلم الحريري على أيدي عُلماء البصرة حتى صار من ألمع علماء اللغة العربية، فغلبت صناعة اللفظ على إبداعه النثري والشعري، وجرت بلاغته في صياغة مقاماته مجرى الأمثال، وظهرت كذلك في هوايته للشعر الذي بثه بين ثنايا مقاماته مُحدثاً في سحر حقيقي عن مجتمع قريته. ويرجح المؤرخون أن يكون الحريري قد احترف هو أو أحد آبائه مهنة بيع الحرير فسُمي بالحريري. وقد ولد في حي بني حرام في القرن الحادي عشر، وتوفي به كذلك في القرن الثاني عشر.
كتب الحريري في تصدير مقاماته: "أنشأت خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله وغُرر البيان ودرره ومُلح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحيّرة والمواعظ المبكية الملهية مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي، واسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري". انظر: عكاشة، ثروت،*موسوعة التصوير الإسلامي*، بيروت: 2001، 43.

[3] أخرجه النسائي في سننه برقم 4209

4 جنكيز خان: كان اسمه تموجين، ولد في منغوليا عام 549 ه/ 1155م. كان أبوه رئيساً لقبيلة "قيات" من القبائل المغولية، وعندما توفي أبوه كان تموجين في الثالثة عشرة من عمره، فثارت عليه قبيلته ورفضوا زعامته، وقضى تموجين فترات عصيبة مدافعاً عن حقه في زعامة القبيلة، وتحمل أيضاً صد هجمات القبائل المناوئة لقبيلته رغم عدم اعتراف عشيرته به كرئيس للقبيلة. وقد صنعت كل هذه الظروف محارباً قوياً قاسي القلب شديد البطش، انتزع حقه من كل منافسيه، بل وأغار على القبائل الأخرى المجاورة له حتى دانت له معظم القبائل بالولاء فسمي "جنكيزخان"، وأخضع قبائل الأيغور، وقبائل الصين الشمالية، وامتد سلطانه حتى جاور أملاك الدولة الخوارزمية. لمزيد من التفاصيل؛ انظر: الصياد، فؤاد عبد المعطي، *المغول في التاريخ*، بيروت: دار النهضة العربية، 1980، 39– 57.

5 يونس، محمد عبد الله، *نقود مدينة الموصل في العصر الإسلامي*، (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 2005)، 279.

6 فرغلي، أبو الحمد محمود، *التصوير الإسلامي، نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه*، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1411 ه/ 1991م، 147.

[7] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم 10461

[8] فرغلي، *التصوير الإسلامي*، 141.

[9] أخرجه البخاري في صحيحه برقم 3244 ، وأخرجه مسلم في صحيحه برقم 7310/ (السجدة: 17)

[10] Hillenbrand, R. *Persian Painting, from the Mongols to the Qajars*, New York: 2000, 134.

[11] هذه المخطوطة باللغة التركية الشرقية، وحروفها أويغورية. وهي كتابان يحكي أولهما قصة المعراج المترجمة عن العربية، والكتاب الثاني تذكرة الأولياء للشاعر الصوفي فريد الدين العطار. وقد انتهى مالك بخشي من نسخ هذه المخطوطة بهراة في 21 ديسمبر 1436 م. وكان العاهل التيموري شاه رخ قد أمر بتزويقها بالصور. انظر: عكاشة، *موسوعة التصوير الإسلامي*، 335.

[12] تجدر الإشارة إلى أنني لا أتناول الموضوع من حيث صدق الرويات التي وردت في الإسراء والمعراج، كما أنني –في حدود علمي – لم أجد ما يدل على وجود هذا المنظر في المواقف التي رُويت عن الرسول الكريم في رحلة الإسراء والمعراج أو في رؤياه التي رأها لهذه المشاهد ما يشبه هذه التصويرة مما يدل على خروج مصور هذه التصويرة عن الروايات الصحيحة لحادثة الإسراء والمعراج. انظر: حفيشة، عبد المؤمن أبو العينين. *الإسراء والمعراج*، الكويت: 2004، 25 – 30 . كما تجدر الإشارة إلى أنني أتناول هذه التصاوير من منظور فني بحت، كما ندرس الآثار المصرية القديمة واليونانية الرومانية وغيرها من آثار السابقين.

[13] أخرجه مسلم في صحيحه برقم 6458

14 حسن، منى سيد علي، *التصوير الإسلامي في الهند، تسليات البلاط وحياة الشعوب في التصوير المغولي الهندي*، القاهرة: دار النشر للجامعات، 2003، 231.

[15] عكاشة، *موسوعة الفن الإسلامي*، لوحة 128.